حامل الأحلام

قصة بقلم عبد الرحمن البيك

لم اكن تلميذا نجيبا في حياتي الدراسية ، كما لم تكن ملامحي ، وانا صغير ، تنم عن اي مغزى . وبالاجمال فقد كنت موجودا في الحياة من الناحية العددية ، اما من الناحية الفنية ـ كما كان يقول ابي ـ فقد كنت مفقودا .

ولقد سببت لوالدي خيبة امل مزمنة ، ذلك انني لم احقق آماله، ورغم ان ذلك قد حدث بدون قصد مني الا ان والدي اعتبر موقفي هذا بمثابة خرق لسنة الطفولة .

والامر الذي كان يؤرق جفنيه ، ويبعث في نفسه المخاوف ، هو انني في طفولتي ، بل وخلال عشرين سنة انقضت من عمري ، لم اظهر لوالدي اية موهبة تطمئن قلبه . وكان هذا الانحباس العاطفي يثير مخاوفه لانه كمسؤول امام المجتمع كان يخشى على سمعته ويخاف من ان اقدم على عمل لااراعي فيه حرمة شيء ، ذلك انه كان يعتقد بانني خلقت في الحياة من اجل ان اقترف عملا على حين غرة فانزل الاذى بالاسرة جمعاء. اضف الى ذلك ان هذا الواقع الذي يحيط بي سبب لابي الما شديدا لانه كان يامل ان يستغل عريكة طفولتي اللينة فيكيفني وفق منهج رسمه في مخيلتي منذ ان بدات احبو . وكان يعتقد ، مع كل اسف ، انني سوف اكون الشخص الذي يريد . والامر الذي حدا به الى هذا الاعتقاد مشاهداته الخاصة عن الانسان المعاصر الذي لم يعد يقف حيال العوائق مكتوف اليدين .

وهكذا عاش في سعادة وبحبوحة من الرخاء حتى غاية دخولي المدرسة الابتدائية ، وكنت وقتئذ قد بلغت الثامنة من عمري .. ومنذ ذلك الحين بدا عصر الاكتشافات ، اذ اخذ ابي يرى في شخصي افاقا مسدودة لا امل في ولوجها . وعند ذلك لم يعد يحدث الناس بالمزايا التي كان من المفروض ان تظهر عندي في سن مبكرة . فلقد تورط ذات مرة واعلن انه سيخلق مني رجلا مرموقا ، وان غايته تنحصر في جعلي شخصا تتركز حوله الانظار ويقصده الناس لقضاء حاجاتهم ، وربما لو ساعدت الظروف لعمل على جعلي ملكا .

لم يكن والدي يغالي ولا يشتط في الخيال ، لان من حق اي انسان ان يفكر كما يشاء وان يتخيل مايشاء . خصوصا وانه كان في تلك الاونة يدير محلا لتوزيع الطحين ، كان ذلك ايام الحرب . ثم اصبح بعد الحرب مختار الحارة وقد اسند اليه هذا المنصب بسبب احتكاكه مع الناس ، وبسبب اطلاعه على خفايا اعداد افراد الاسر .. حتى قيل فيه ان تقديراته ادق من سجلات الاحوال المدنية ومنصبه هذا ، كمختار يتقاضى ربع ليرة عن ختم شهادة حسن السلوك ونصف ليرة عن ختم استدعاء الهوية الشخصية ، حفزه لان يطلب لي العلا . وكان حافزه هذا قانونيا وثوريا في الوقت ذاته ... ولكن الحظ لم يحالفه .

وهو في سبيل اعلاء شأني والحفاظ على كرامتي جند نفسه لخدمتي فاخذ يجري ارتباطات مع الاساتذة الذين يعرفهم من اجل اعطائي مزيدا من الدروس ، وكان يبغي من ذلك اظهاري بمظهر التلميذ الملهم الذي يجيب على اسئلة الاستاذ بوحي من نفسه ، وكان والدي يعتقد بان هذا المظهر لابد له من ان يجعل التلاميذ يخشعون لمعلوماتي وبالتدريج سوف يقسرهم على الالتفاف حولي فيمنحوني ثقتهم اثناء الانتخابات ..

وكان هؤلاء الاساتذة الذين اخذوا يرمونني بالنظرات مفترضين انني سوف اتجاوب مع جهودهم ، يرهبونني ويثيرون في نفسي الخوف . لانهم قبل ان يتعرفوا علي كانوا يظنون ان مسالة افهامي المعلومات هي من البساطة بحيث انهم لن يحتاجوا الا لاشغالي بموضوع ما ومن ثم ينصرفون هم الى شؤونهم فلا يضيعون الوقت معي ، ولانني في الوقت ذاته كنت اعتقد ان تلك الجمهرة من الاساتذة سوف تتغلب على عقدة الفهم عندي. ولكن ثبت العكس وخاب رجاء كل منا في الاخر . ومنذ تلك الايام وقع والدي فريسة القلق واخذ ينظر الي بعين حاقدة وفي احيان اخرى كان يحاول مراقبة اوضاعي آملا ان يرى قبسا من نور خلال معضلتي العاطفية والفكرية فيعمل على تنميتها بكل ما اوتي من قوة ، خصوصا وانه يستطيع تنفيذ ارتباطاته مع الاساتذة في اي وقت شاء نظرا لصلاحياته كمختار وكموزع للطحين .

اذكر انه اثناء طفولتي كنت افضل الاستماع دون ان المس في نفسي قابلية لان اتحدث في اي موضوع ولا ادري سببا لذلك . وكان الناس يكثرون من تعليقاتهم حول ذلك المستقبل الذي يصوره والدي لهم . ولكنني كنت لا اجيب وكان هذا السكون يخرج والدي عن صوابه فبينما كان يرجو مني ان اتصدى لهم واجابه هجماتهم نظرا لانه كان يتوقع ان الاقي ذات الموقف عندما شاشتغل في السياسة ، كنت اتوجه عكس آماله ... فاسكت كلما سئلت واشيح بطرفي كلما توجب علي الجواب .

وكانت مسالة بصري شغلي الشاغل ، فانا لم اكن املك حدقتين متناظرتين ، بل ان الحول كان ظاهرا فيهما ، ولقد عالجهما ابي منذ كنت صغيرا ، ولكنه لم يفلح في اعادتهما الى طبيعتهما . ومنذ ذلك الحين اصبحت ارى الاشياء مائلة ، وانه يترتب علي ان اقبض على الاشياء مرتين مرة امسك بها الهواء ومرة اخرى احظى بمسك الاشياء .

وفي سن السابعة مر شعر راسي بطور غريب فاستفحل وثار على المشط والماء . وهذه الطبيعة التي ميزت شعري هي التي حفزت والدي على تحويلي الى مناضل وثوري . وكان الناس تحت ستار السؤال عن صحتي يضعون اكفهم على شعري ليقفوا على سر صلابته وخشونته وكنت اسمح لهم ان يفحصوه كما يشاؤون لان والدي اعتبر شعري الثائر بمثابة بياني الثوري الاول .

وكان شعري عند قفا الراس يتجه افقيا وفي قمته يتجه عاموديا اما عند حدود الجبين فكان يمتد مستقيما كانه رف دكان .. ولقد قيل عني ، بخصوص مشهد شعري ، انني ولدت بقبعة .

وقد اضطررت لان اضيف ، وانا في تلك السن ، الى هذه المجموعة من الانحرافات نظارة سميكة غيبت عيني واصبح الناظر اليهما يخالهما في مكان سحيق . وكانت الايام تتوالى وانا لاتقدم ، ولقد ظللت ابدا اجهل اصول لعب الطاولة ، مع انني كنت التف مع رجال الحي في المقهى الصيفي واحملق في الطاولة والاحظ انتقال القطع ، حتى حملتهم ذات مرة على الاعتقاد بانني بدات افهم .

وكانت الايام ايضا تاتي على الحارة بشتى الوان الحزن والفرح. ففي ايام اعياد الجلاء كانوا يجرون بعض التمثيليات في القسطل وايام الاضرابات كانت الحارة تقدم الضحايا . وفي كلتا الحالتين كنت ابرز للوجود انما في صمتي ووقاري .. انظر فقط .. حتى قيل بحقي انني انظر بعين مجردة ..

وذات مرة ، واثناء مراقبة ابي لي ، سألت والدي : « من هم المغول ؟ » وخيفة من ان يعطيني اجابة مهزوزة فقد تملص من الاجابة تحت ستار اكتشافه الفجائي لي .. واخذ يصيح كالطفل المفرط بالفرح. « وجدته .. اكتشفته .. انقذته .. » وضمني اليه وهو يقول .. « اذن فميولك تاريخية .. » ثم ضمني اليه ثانية وشرع يقبلني فسقطت نظارتي وانكسرت ، وعندئذ بردت اندفاعاته ، ولكنه سرعان ماوعدني بشراء غيرها دون ان يبدي اي تحفظ كعادته . ثم مالبث حتى اضاف : « كلما سألتني سؤالا ابيح لك ان تكسر نظارة » وفي اليوم الثاني قادني الى منزل راغب سلقيني وسلمني اليه بطريقة لاينقصها الا طلب ايصال ثم قال لي .. « هذا عمك راغب ياعبد الجليل .. انه استاذ التاريخ .. » ومنذ ان وقع نظري على استاذ التاريخ فقدت القابلية على فهم المغول ولم اعد اتشوق لان اعرف اي شيء عنهم ، ولكن استاذ التاريخ اخذ ينهك نفسه في كشف الماضي امامي ، استجابة منه لرغبة والدي الذي كان يجلب له اكياس الطحين بدون استحقاق ، اما انا فما كنت افهم ماهو معنى الماضي كي يكتمل عندي الايمان بالاشخاص الذين عاشوا فيه وحاربوا وانتصروا وفكروا .. وكاد استاذ التاريخ يخرج عن صوابه عدة مرات ، وحاول مرتين ان يصرفني ولكن والدي اخرج له هوية شخصية من اجل الانتخابات ، فلم يعد يقدم على صرفي .. واذكر انه كثيرا ماكان يمتليء رغبة لان ينكش رأسي بقبضة يده التي كثيرا مالمحتها تتجول بالقرب منه ... ولكنه كان يحجم ، وكنت في الوقت نفسه اتظاهر بعدم ملاحظتي له .. فانصرف ناظرا الى ذبابة تطير .

وكان ابي يتقدم في مجالات الفبطة والفرح لان الاخبار كانت تتناهى اليه من انني تلميذ لم تقع يد علي وانه لانظير لي وانني شخص موهوب وانما مواهبي غير طبيعية وهي تستدعي التأني .

ولكن هذا لم يدم طويلا فقد زهق استاذ التاريخ حياته وفضل ان يجوع من ان يعلمني فردني الى ابي وقال له : « ارجوك ياخيري افندي لاترسل لي طحينا بعد الان واناربما تركت البلدة باسرها » ونظر الى والدي شزرا ثم انهال علي ضربا ، فلم ابد اي تحفظ على ذلك المضرب لانه اخبرني عدة مرات بان ضربه لي لايعني الا مصلحتي وانه يرجو الا يضطر الى ذلك مرة ثانية .

واخذ ابي بعد هذا ينتظر ان ابوح امامه باي شيء كي يمسك برأس الخيط من جديد . وكان اصدقاؤه يخففون عنه آلامه اثناء احتسائهم الشاي في مركز التوزيع ويصورون له مستقبلا مفترضا .. ويحملونه على الاقتناع بانه ربما تفجرت مواهبي على حين غرة. فهناك كثيرون اخفقوا في الحياة الدراسية ثم نبغوا في الحياة العملية . وضرب له احدهم مثلا مقتطفا من حياة لنكولن وقال له بان هذا الرجل كان حطابا ثم اصبح رئيسا واذا والدي ينفجر ثائرا وهو يقول : « لم اعد اؤمن بهذه الوعود.. لم اعد اؤمن .. اقسم بالله ياجماعة ان وجوده ووجود الابريق سواء .. سلوه بربكم ان كان يعرف معنى الحطب .. انظروا .. انظروا اليه هل ترونه يهتز .. وانه علاوة على ذلك يزاورني .. وهذا هو الشيء الذي يجيده .. » وكنت وقتئذ اجلس قبالته في الدكان انصت الى كلماته المألوفة ولكنني كنت انظر الى كفة الميزان ، انما كانت عيناي تبدوان انهما مصوبتان نحوه ، وهذا ماحمله على ان يقذفني بكيس طحين فارغ كان الى جانبه فلم ابد حراكا رغم انني اكتسيت بطبقة من الطحين غيرت جميع هيأتي واظهرت شعري وكأن الشيب قد وخطه بضربة لازب . ولم آسف لشيء ، الا ان نظارتي سقطت وتهشمت . ولم يشتر ابي بدلا عنها الا بعد ايام ، وقد قال لمن حوله بانه سيحاول ان يتركني على طبيعتي مادمت لا ابدي ايجابية .. ثم مالبث حتى بثهم شعوره بالخجل من اهل الحارة .. ذلك انه كثيرا ماملأ نفوسهم بالامال والوعود حول ذكائي .

بقيت عدة ايام بلا نظارة ، وظن رفاقي في المدرسة ان عصبي البصري قد اشتد وانني اصبحت على ابواب الفهم ولكن شيئا من هذا لم يتحقق، فلولا هذه الكلمات ذات الحدس الغريب .. « كالمغول » .. لما علق شيء في ذهني ولما استطعت ان اتذكر الكلمات الرئيسية التي يحتاج اليها التلميذ . وكنت ايام الفحوص اسرق المعلومات من رفاقي الضعفاء فابدو في الاعين انني مجتهد ناشيء ، وكانت النظارة تساعدني على ذلك لانها كانت تظهرني بمظهر التلميذ المسكين الذي يعيش على الفطرة .

ولقد حدث امر في الصف ، برهن عن وجودي في ذات المكان الذي انا فيه .. فلقد كنت اخص درس الموسيقى بشعور خاص مفرح لذلك كنت اجهد لان ابرز فافتعل صوتا كي انبه الاستاذ الى اشتراكي بالغناء ولكن صوتي كان ينشز ابدا .. وكان الاستاذ من ناحيته يتنقل بين المقاعد ليكتشف صاحب هذا الصوت الناشز فلا يعثر عليه .. وكنت من ناحيتي احاول ابلاغه صوتي ظنا مني انه سوف يثني علي ومع ذلك فما كنا نعثر على بعضنا .. وفي ذات مرة حصر شبهته عندي .. ورنا بنظره نحوي فاذا بفمي يتدفق بصوت كله نشاز .. وعند ذلك امرني بالسكوت دون ان يفهمني السبب ففنيت .. وامرني بالسكوت ففنيت .. وعندما اضطر لاسكات التلاميذ جميعا كنت ماازال محلقا بالانغام وانا اقول .. « السفح والجداول والحقل والسنابل .. لنا غد والامل لنا يد والعمل .. » . وامرني بالوقوف فامتثلت وسألني ـ اسمك .

فلم احر جوابا .. تضامنا مع رفاقي الذين تعاهدوا على امساك الاسم عن كل استاذ جديد .. فسألني ثانية :

ـ اسمك يا أعمى ..

فنظرت في وجوه رفاقي الذي باشروا بالضحك .. ورأيت الكبار منهم في الصفوف الخلفية ، وهم في سن الخامسة عشرة ونحن مانزال في الصف الثاني ، يطلبون مني ان اظهر صلابتي .. فاعتصمت بحبل الصمت .. فصاح المعلم :

ـ اسمـــك :

وهنا انبعث صوت خشن من الخلف يقول :

ـ عبد الوارث عسر ..

فاخرج المعلم ورقة وقلما وكتب :

ـ اذن .. فاسمك عبد الوارث عسر .. ياعبد الوارث تعال هنا..

وحضرت اليه وكان قد جلس الى الطاولة واخذ يعد كتابا الى ابي .. فسألني :

ـ ماهو اسم والدك ..

فنظرت الى وجوه رفاقي .. ولكن الاستاذ صاح ..

ـ انظر في وجهي .. قل اسم والدك ..

وانبعث صوت اخر من نهاية الصف يقول :

ـ توفيق الدقن :

وانكب على الورقة البيضاء فملأها .. ثم سلمها الى تلميذ تعهد بايصالها الى ابي .. وبعد ذلك توصل الاستاذ الى فكرة ، واقترح ان اغني على سجيتي كي اؤلف مع باقي الاصوات نغم الهارموني . واحضر

فنـــدق كلاريدج

شارع سليمان بالقاهرة

موقع ممتاز واسعار معتـــدلة

بادارة : حلمي المباشر

لسماع التجربة المدير والاساتذة وعددا من الاباء ومدراء المدارس .وكان ذلك في احتفال ذكرى جلوس الملك فيصل . واثناء الغناء انسجم صوتي مع المجموعة لاول مرة في حياتي واخذ الاستاذ يصيح .. « اطلع ..ارفع .. اخرج صوتك .. اين انت ياعبد الوارث .. »

وبعد الاحتفال تلقيت عقابا لمخالفتي المخالفة ولعودتي الى جـادة الصواب . وكان هذا الموقف مبعثا لاستدرار شفقة والدي فاشترى لـي نظارة الا انه اكتشف لاول مرة ايغالي في البعد عن الفهم .. اذ كـان بين اونة واخرى يسألني كمن يريد ان يقف على صحة تفكيري :

ــ ماهو اسمك ..

فاجيب بلهجة الواثق :

ــ عبد الوارث عسر ..

ولم استطع بعد هذا التحرر من هذه التداخلات وكان ابي يتحمس لاصلاحي يوما بعد يوم ... فقرر في ذات نفسه ان يدفعني الى الحياة العملية فيعلمني مسك الاختام ، ولكنه لم يقدم على هذا العمل الا بعـد سنوات من التفكير به واصبح اسمي في تلك الفترة « حامل الاختام » واخذ بعض المثقفين ينادونني باسم بتلر او بطلر حامل اختام الملكة ..

وكنت اسير الى جانب ابي واستقي المعلومات منه واحفظ قواعد المهنة وكنت قد فصلت من المدرسة لبلوغي سن الثامنة عشرة ولرسوبي عدة سنوات في الصف الرابع . وكان لابي فورات عصبية ورثها منذ دخلت المدرسة الابتدائية .. ولقد حدث ذات مرة ان استوحى احـد اصدقاء ابي من شكلي العام ماجعله يقول امام ملأ من الناس كانوا يسهرون في المركـز :

ــ انه يشبه دهاة الانكليز ...

ورنت هذه الكلمات في اذني .. فاستدرت نحو ابي . وسألته :

ــ ما معنى كلمة دهاة ..

فاجابني ابي مغيظا :

ــ وهل فهمت كلمة الانكليز حتى سألت عن دهاة ؟.

واشحت بطرفي عنه في بطء وكانني لم اسأل ولم اجب ...

وسألني صديق والدي في شيء من الجد :

ــ احقا لاتعرف معنى دهاة ؟

فاجبته :

ــ بل اعرف .. معناها وهل فهمت كلمة الانكليز حتى سألت عـن دهاة ؟

وارتسمت علائم الوجوم على الحاضرين واخذوا يتصورون المدى الذي كان يصل اليه ذكائي .. واذ اراد ابي ان يوقعني في حرج اخر.. بحيث اصبح لايريد لي اليقظة ولا الفهم .. خاطب الاصدقاء :

ــ ان الامر الذي يغيظني .. نسيان اسمه الاصلي فاسمعوا اليه ماذا يجيبني .. فالتفت الي وسألني :

ــ ماهو اسمك ياعبد الجليل ؟

ــ اسمي ؟.. عبد الوارث عسر ..

ــ هل رأيتم ... الم اقل لكم .. هل عندكم اجمل من هذا ؟.

وطردني ابي ليلتئذ فقررت ان انام خارج المنزل وحينما اتخـذت ذلك القرار مات ابي في تلك الليلة .. وعدت الى المنزل لاتولى مهـام ابي .. فشاهدته ... في النزع الاخير ، ولم اعرف ماذا افعل .فحملت اليه الاختام وقلت له :

ــ هل تريدها ام تفضل ان ابقيها في حوزتي ؟

وهنا نفخ روحه دون ان يحسم هذه المسألة .. وفي الايام التالية عرضت الاختام على الناس فلم يحملوها وهنا قال الناس عني بان حامل الاختام انقلب الى ملك .. واصبحت بالفعل اشبه شيء بالزعيم الشعبي .. لقد راح يلتف حولي الناس فاختم لهم اوراق الجندية وامنحهـم اشعارات حسن السلوك ويطلبون وساطتي لاخراج الهويات الشخصية .. وعندئذ تذكرت انني احقق حلم والدي ..

حلب — عبد الرحمن البيك

قريبـا :

سلسلة القصص العالمية

وفيها تقدم دار الاداب اروع ما كتبه كبار ادباء العالم من القصص الطويلة والقصيرة .

انتظروا الحلقة الاولى :

قصص سارتر

في كتاب واحد ضخم يضم القصص التالية :
الجدار ــ الغرفة ــ ايروسترات ــ صميمية ــ طفولة قائـد ــ صداقة عجيبة

نقلها عن الفرنسية

الدكتور سهيل ادريس

والحلقـة الثانية :

قصص كامو

في كتاب واحد ضخم يضم القصص التالية :
الغريب ــ الزوجة الخائنة ــ الجاحد ــ البكم ــ الضيف ــ جوناس ــ الحجر الذي ينبت

ترجمة

عايدة مطرجي ادريس

منشورات دار الاداب